الباب الخامس

صفات الاسلوب (١)

للاسلوب أوصاف شتى يمكن معرفتها بالنظرة السريعة ، كالأسلوب الموجز أو المساوى أو السهل أو الغامض أو العلمى أو التصويرى إلى غير ذلك من السمات الواضحة فى العبارات ، والتى يمكن بها تعدد الأساليب إلى أشكال كثيرة . ولكن الذى يذكر هنا إنما هو أعم الصفات من جهة وأعمقها من جهة أخرى ، لتناولها جميع الأساليب ، ولصلتها بنفس الأديب، ومعارفه ، وعواطفه ، وذوقه ، وأخيرا بعباراته . لذلك كان من الأصح أن تسمى عناصر أو أركانا. ولعلها ترجع جميعا الي أصل واحد هو صدق التعبير ؛ فالاخلاص فى تصوير ما فى النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة ، يجعل الأسلوب مثاليا متى توافرت للأديب هذه الوسائل البيانية التى ترد عليك فى الفصول الآتية . وبذلك يتحقق ما كررناه كثيرا فيما مضى ، ويصبح الأسلوب مرآة العقل ، والخلق ، والمزاج ، وطرق التفكير والتخييل ، سواء أكانت تلك قوية أم ضعيفة، مستقيمة أم مضطربة ، جميلة أم قبيحة ، لأن مصدر ذلك كله انما هو نفس الكاتب ؛ فمنها تنشأ هذه الصفات ، واليها ترد .

ويمكن إرجاع هذه الصفات الى ثلاثة قياسا على الغايات التى يقصد اليها المنشئون .—

أولا — الوضوح Clearness لقصد الافهام

١ــ أصول البلاغة للاستاذ Genung

ثانيا — القوة Force لقصد التأثير .

ثالثا — الجمال Beauty لقصد الامتاع (أو السرور)

وسنتناول كل صفة بشيء من التفصيل فيمايلى.

obeikandl.com

الفصل الاول
وضوح الاسلوب

أول واجب على البليغ أن يكون واضحا مفهوما يرمى الي إفادة قرائه ورفع مستواهم الثقافى . ولا يستطيع ذلك بالوقوف عند تزويدهم بالمعارف جامة ثقيلة ، بل يحسن به أن يكسب معارفه حياة وروعة شائقة بما يبث فيها من عواطف وأخيلة ملائمة كما قيل من قبل . والمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب ، فيجب على الكاتب أن يكون فاهما مايريد أداءه فهما دقيقا جليا ، ثم يحرص على أدائه كما هو . ولذلك أثره البعيد فى قيمة الأسلوب . لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء ، وبعد ذلك يأتى التعبير اللغوى الذى يتطلب من المنشيء ثروة لغوية وقدرة على التصرف فى التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ، فلا يرضي عن كلمة أو جملة تبعث الابهام أو التردد ، ولا يشعر الناس بأن عبارته في حاجة الي أن تفهم. ولن يجوز فى فن البلاغة هذا القانون الذى ارتجله أبو تمام حين قال . ولم لا تفهم ما يقال ؟ جوابا لمن قال له : لم لاتقول مايفهم ؟ لان البلاغة قائمة على العناية بالقراء والسامعين، ومطابقة الكلام لمقتضي الحال ، فاذا بدا الأسلوب بعد ذلك غامضا توجه الطعن الى منشئه ، ورمى إما بعدم فهمه ما يقول وإما بعجزه عن التعبير عما يفهم . نعم قد تكون الفكرة فى ذاتها غامضة لانها لما يتم بحثها ، فعليه عرضها كما هى بأحدث أوضاعها كما ترى ذلك فى تاريخ العلوم والفلسفة ، وقد يكون القراء أنفسهم دون مستوى الأديب أو من طراز آخر غير ما يكتب فيه ، فعليه ـ ليكون البليغ التام ـ أن

تُكتب لهم باللغة التى يفهمونها تاركا التحرج أو الاعتزال[١] . وهاتان الخطوتان اللازمتان لتحقيق الوضوح الأسلوبى تستلزمان أمرين. أحدهما متصل بالأفكار نفسها وهو الدقة ، والثاني متصل بالقارىء وهو الجلاء .

ولكن كيف يتحققان ؟

أولا : الدقة أو وضوح الفكرة

فيجب أن تؤدى كما هى ممتازة من سواها ، ظاهرة الخواص والمعالم سواء أ كانت قريبة سهلة كقول الطغرائى :-

ومن يستعنْ بالصبر نال مرادَه ولو بعد حين . إنه خير مُسعد

وقول بعضهم : عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك أم كانت لطيفة دقيقة مخترعة تلفت النظر وتحتاج الي أناة كقول أبى تمام :—

وإذا امرؤ مدحَ امرأ لنوالِه وأطالَ فيه فقد أرادَ هجاءَهُ

لو لم يُقدِّر فيه بعدُ المستقَي عند الوُرود لما أطال رِشاءَهُ

وقول بعضهم لأحد الملوك « أخلاقك تجعل العدو صديقا. وأحكامك تجعل الصديق عدوا» ويلاحظ أن هذه الدقة قد تتعارض مع البساطة ، فاذا كانت الكلمات المألوفة تستطيع أداء الأفكار العادية . فان المعانى العميقة القائمة على التحليل الدقيق ، والملاحظة البعيدة ، لا بد لها من ألفاظ وصور أخرى تلائمها ولو كانت غير عادية ، كما رأيت في وصف الأسد قبلا ، كقول ابن المعتز : « سافر فلان فى جيوش عليهم أردية السيوف ، وأقمصة الحديد ، وكأن رماحهم قرون الوعول ، وكأن دروعهم زبد السيول

١ـ البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥

علي خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنقع سرادقها . »

يقوم وضوح الفكرة ودقتها على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التي يؤثرها لأنها أدل من سواها علي ما يريد ونذكر هنا بعض القوانين التي تساعد في تحقيق الدقة ، وتحديد الأفكار :—

(١) اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان ، والتي تدل على الفكرة كاملة . وذلك يدعو إلى ملاحظة هذه الفروق الدقيقة بين ما تسمي المترادفات حتى لا يصير المعني ذاهب المعالم . من ذلك العاطفة ، والانفعال والسقم والمرض ، والهضبة والجبل ، والسهولة والغفلة . وقد وقع جرير فيما يسمى الاشتراك حتى ذهب الناس كل مذهب فيما يعنى . وذلك قوله :

لو كنتُ أعلم أن آخر عهدكم يومُ الرحيل فعلت ما لم أفعلِ

فماذا كان يفعل ؟ أيبكى أم يهيم على وجهه ، أم يمنعهم المسير . أم يدفع اليهم شيئا يذكرونه به أم ماذا ؟ [١] . . ومن يدرى فلعل فى هذا الابهام بلاغة أرادها جرير ، ولم يفطن لها النقاد .

(٢) يحسن بالأديب الاستعانة بالعناصر الشارحة أو المقيدة ، أو المخيلة ، كالنعت ، والمضاف اليه ، والحال والتمييز ، والاستثناء . . فذلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدها ، كقوله : شوقى شاعرا أحسن منه ناثراً ليلة نابغية ، نهر النيل من أطول أنهار الدنيا . وقول ابن الرومى .

كأنّ مواهبه في المحـو لٌ آراؤه عنـدَ ضيق الحيـلْ
فـلو كان غيثـا لعمّ البـلاد ولو كان سيفا لـكان الأجلْ
ولو كان يعطى علـي قـدره لأغنى النفوس وأفنى الأمل

---

١ ـ راجع الصناعتين ص ٣٢

(٣) ومما يساعد فى وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعانى ، اذ كانت مقابلة الأضداد مما يزيد في تحديد كل وبيان خواصه وشرط ذلك عدم الغلوفيه . والاعاد صنعة بديعية تفسد الأسلوب كقولك طول النهار من قصر الليل. لانقض ولاابرام ، والور والصدر ، العقل فى الحياة كدفة السفينة ، والعاطفة شراعها ، وكقول البحترى .

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقبْ الا خمُول نَبيه

(٤) البعد عن الغريب الوحشى ، والعمد الى لغة الناس وما يستطيعون ادراكه ، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس . فلكل ألفاظ ومستوي اليق به . وعكس ذلك حيلولة بين المعني والقراء أو السامعين . ولكل مقام مقال ، ومن ذلك ما قاله رجل من أهل خراسان للخليفة المهدي [١]: أطال الله بقاء أمير المؤمنين · انا قوم نأينا عن العرب ، وشغلتنا الحروب عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا وما فيه مصلحتنا ، فيكتفى منا باليسير عن الكثير . ويقتصر على ما فى الضمير دون التفسير » وقال الشاعر : --

حلالٌ للبيلى أن تروعَ فؤادهُ بهجر ومغفورٌ لليلى ذُنوبُها
تطلّعُ من نفسى لليلي نوازعٌ عوارف أن اليأس منها نصيبها
وزالت زوال الشمس عن مستقرّها فمن مخبرىْ فى أى أرض غُروبُها

واذا أردت أمثلة للاغراب فارجع الى الصناعتين [٢]

(٣) ثم للمصطلحات العلمية ، والفنية ، والاجتماعية والتاريخية التي وضعت لمعان خاصة محدودة . لتكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة

---

١ ــ الصناعتان ص ١٤٠ ٢ ــ ص ٢٦

وروابط عقلية مشتركة : وقد ذكرنا ذلك في الكلام على أسلوب التاريخ

والذى يخشى هو أن ينهمك البليغ فى تحرى الدقة ، فيعود الأسلوب بذلك جافا أشبه بالصكوك التجارية أو القانونية . خاليا من الروح الفنية تقرؤه محكما دقيقا ولكنك تشعر بسقم وملالة . وهذا ماحظه ابن قتيبة [١] على قول لبيد بن ربيعة .

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فقال « هو جيد المعنى والسبك وان كان قليل الماء والرونق » وعندى أن ذلك راجع الي أن البيت قد استأثر به العقل دون العاطفة فذهبت روعته . وضاع جماله الأسلوبى .

ثانيا : الجلاء أو وضوح التراكيب

بعد أن يتوافر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها ، كانت خطوته الثانية مطابقة الأسلوب لادراك القارىء ، وهي تبدو فى صور شتى من الرقة والجزالة أو السهولة والصعوبة حسب المعانى التى تؤديها العبارات . على أنه لو كانت الأفكار غويصة وجب علي البليغ أن يحقق من السهولة أبعد درجاتها ، ويكسب تراكيبه صفة الشفافية ، لتكون كالزجاج الأبيض الصافى ، يحفظ الرسم ، وينم عنه كما هو أو كأن لازجاج .

والقانون الأساسى لتحقيق هذا الجلاء هو تحري البساطه فى صوغ العبارات ، ومجانبة التعقيد ، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها . وهذا القانون نفسه متصل بالتكوين المنطقى والنحوى للأسلوب ، هذا التكوين الذى

١ــ الشعر والشعراء ص ٤ طبعة الخانجى .

يسلك الكلمات ، والجمل والعبارات فى نظام لفظى هو صورة لنظام عقلى ، وتفكير منطقي مطرد . وهذه بعض القواعد التى تفيد فى تكوين التراكيب الواضحة :—

(١) لابد للبليغ من ذوق نحوى سديد ، يحسن التأليف بين الكلمات لتدل علي معني دقيق معين ، وتسلم من هذين العدوين اللذين يفسدان الكلام ؛ اللبس حينما يدل التركيب على معنيين ممكنين أو أكثر ، كقول المتنبي :—

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَن بات حاسدا لِمَنْ بات فى نَعمائه يتقلّبُ

فقد يكون معناه — بناء على عود ضمير نعمائه علي من الثانيه — أن أشد الظالمين ظلما من تقلب فى نعمة إنسان ثم بات يحسده عليها . وقد يكون المعنى — بناء علي عودة ضمير نعمائه على من الأولى — أن أشد الناس ظلما من أولي إنسانا نعمة ثم حسده على تمتعه بها ، فهو الواهب وهو الحاسد. والمعروف أن الشاعر لم يرد إلا معني واحدا ولكنه لم يحترس من الثاني. ثم الغموض حينما لا يدل التركيب علي معنى معين دلالة قاطعة كبيت جرير السابق . ومن خير العبارات التي لوحظ فيها هذا التكوين النحوى السديد ما كتبه أخ إلي أخيه : « ابتدأتنى بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء من غير هفوة ، فأطمعني أولك فى اخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك ، فسبحان من لوشاء كشف ايضاح الرأى في أمرك عن عزيمة الشك فى حالك فأقمنا على ايتلاف أو افترقنا على اختلاف . » وهذا المثال ينفعنا فيما يلى .

(٢) الوثوق من أن العناصر التركيبية التي يرتبط بعضها ببعض في

المعنى ـ كأصل وتابع أو معنى وضده ـ قد ركبت بنظام دقيق ، وتأليف منسق بحيث لا يتعب القارىء فى تبين هذه الصلات بين الأجزاء ، فينصرف عن المعنى ، ويجهد عقله فى غير نفع ، فاذا رجعت الى المثال السابق وقرأت الجملة الأولى وحدها رأيت الكاتب بعد ما ذكر الفعل والفاعل والمفعول ، يقيد ذلك بقوله ـ بلطف ـ ثم بقوله ـ من غير خبرة ـ لأن القيدين لا زمان لاتمام المعنى الأول ، ثم يقابل ذلك فى الجملة الثانية بتأليف هو كالأول تماما ، ويسير بهذا النظام والتقسيم حتى ينتهى الى غايته ، فنجا من التعقيد .

(٣) بعد ذلك تأتى مراعاة الجمل معا وما يكون بينها من فصل أو وصل ، وما يربطها من حروف العلة ، أو الحال ، أو الاستثناء ، بحيث لا تترك فواصل دون داع ، ولا يغفل حرف وصل حيث يجب ذكره ، ولا تجد فكرة دون التمهيد لها .

وهنا يتراءى الوضوح التام للاسلوب جملة ، اذ تجده سلسلة لفظية لسلسلة معنوية وتكون الأولى موسيقا عقلية هادئة عميقة كمثال النثر السابق وكقول الشريف الرضى .ـ

ولقد وقفت على ربوعهم ... وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب ... نضوي ، ولج بعذلى الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

فانظر الى واو الحال أول الشطر الثانى ، والفاء صدر البيت الثانى ، وحتى التى تفيد الغاية ، ثم قوله . فمذ ، وجملة تلفت القلب . تلك الروابط عنصر هام في اللغة اذا فقدتها عادت الأفكار والتراكيب مفككة بغير نظام.

(٤) ومما يصل بذلك الإطناب ، والمساواة ، والايجاز ، ولسنا

نريد هنا فرض أحد هذه الأوصاف على العبارة ، لأن كل صفة منها تكون أوفى بالغرض فى مقام دون سواها . فالشعر تكفي فيه الكلمة الموجزة . واللمحة الخاطفة أحيانا لأن طبيعة الايجاز والرمز ، والأسلوب العلمى تلائمه المساواة وكل من الايجاز والتطويل ضار فيه اذ كان مقدمات ونتائج دقيقة محدودة . ويكون الاطناب أحيانا فى الخطب، والمقالات السياسية، والاجتماعية ، ولعل أسلوب الصحافة الآن أميل الى ذلك .

الفصل الثانى
قوة الاســـلوب

إذا كان الوضوح ألزم صفات الأسلوب وأولاها بالرعاية ـ لأنه يحقق الغاية الأساسية ، وهى الافهام ـ فاننا نلاحظ أن الفنون الأدبية التى يغلب فيها الوضوح هي النصوص القائمة علي المعانى العقلية لقصد الثقافة كالقانون ، والفلسفة ، والجغرافيا . لـكننا أحيانا لانقتصر فيما نكتب على نشر الحقائق وانما نعنى كذلك ـ أو أكثر من ذلك ـ بايقاظ العقول الخامدة وبعث الشعور والحماسة ، واثارة العواطف فى نفوس الناس . وبذلك تهب للافكار حياة أقوى من حياتها العقليه ، لتكون ممتعة مؤثرة ، فهذه الحياة هى التى تسمى القوة .

نلاحظ اذاً أن القوة صفة نفسية . تنبع أول أمرها من نفس الأديب الذي يجب أن يكون هو نفسه متأثرا منفعلا اذا شاء من قرائه حماسة وانفعالا ، وهى لذلك صفة العاطفة والارادة والأخلاق قبل أن تكون صفة الأسلوب . فالكاتب الذى يدرك الحقائق بوضوح ، ويعتقدها بصدق ، ويحرص علي اذاعتها ، تجد فى عبارته صدى ذلك ، وهى قوة لاتكون بالتقليد والتصنع ، وانما هي من قوة الأخلاق ، وصدق العقيدة وصحة الفهم وبعد أغواره . وإذا كان الغرض من الوضوح هو الاقتصاد المباشر فى إجهاد مواهب القراء . فان الغرض من القوة الاقتصاد غير المباشر بايقاظ عقله ، وعواطفه ، وأخيلته لتدرك المعانى بقوة ، وتحظى بمتعة جديدة إذ كانت قوة الأسلوب صدمة للعقل ، ودعوة للنزال . والبحث عن مواطن الروعة

والفائدة . وهناك قاعدتان لتحقيق القوة الأسلوبية ، نذكرهما فيما يلى .

أولا : قوة العبارة

ويراد بالعبارة القوية ماتتجاوز بالعقل معناها الحرفى إلى معنى أو معان أخرى مجازية أو غيرها ، وذلك يكون بالتمثيل ، والكناية ، والاستعارة ، من كل ما يفتح أمام القارىء آفاقا من التفكير أو التخييل ، من ذلك قول بشار :—

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه

فيمكن أن نفهم من هذا البيت معانى ثلاثا بهذا الترتيب : أولها هذا المعنى الحرفى الساذج وهو أن يحتمل الانسان شرب الماء على قذاه أحيانا لأنه لا يضمن صفاءه دائما . ثانيهما احتمال الصديق على مابه من عيب فلم يسلم انسان من العيوب ، وهذا المعنى هو المناسب لأن بشارا كان يعاتب . وثالثها ، وهو الأخير ، احتمال السقوط فى الحياة وتحمل عنت الدهر ، فالفوز المطلق غير محتوم .

على أن مثل هذه الصور الخيالية ، والعبارات البيانية ، تبين لنا كيف يتصور الأديب الأشياء ويتناولها بعقله وخياله ، وتجعلنا نشعر بشعوره ، ونتحد معه ، ولو لحظات .

ونذكر هنا بعض الوسائل التى تحقق للبليغ قوة التعبير :—

(١) من ذلك ، ماذكر قبلا ، من استعمال الكلمات المألوفة المحدودة المعنى ، العربية ، فذلك يفيد فى وضوح الأفكار والصور ، كما يفيد فى قوتها واستقرارها فى العقول . وليس ينفع هنا اللفظ المشترك ولا الغامض ،

ولا الكلمات الأجنبية التى لم تشرب روح العربية، لأنها اذا فقدت الإلف والوضوح فقدت القوة . ولقد حمل ذلك بعض كتابنا على استعمال الكلمات والأمثال العامية بحجة أنها تحمل ذوق الشعب ، وشعوره ، وتدل على كل ما يحيط بالفكرة من أطياف .

(٢) استخدام الكلمات الوصفية التى تفيد فى جمال الأسلوب وفى قوته مما ، ويراد بالكلمات الوصفية ، تلك التى تصور مشاهد أو حوادث تلفت النظر ، وتروع الفؤاد ، وتثير الاعجاب ، دالة على ما فى الموصوف من بهجة ممتعة ، أو صوت مجلجل ، أو إبداع عجيب ، كما رأيت ذلك فى فن الوصف ، وكقول بديع الزمان فى المقامة الأسدية : « فاذا السبع فى فروة المرت ، قد طلع من غابه ، منتفخا فى إهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد مُلِيَ صلَفاً ، وأنف قد حُشِيَ أنَفا ، وصدرٍ لا يبرَحُه القلبُ ، ولا يسكنهُ الرعبُ » .

(٣) الاستعمال المجازى للكلمات ، أو وصفها بنعوت غريبة تؤدى معني المبالغة المقبولة والايجاز الطريف ، وتفتح للقارىء مجال التفكير والتخييل ، ومن هذا الأخير قولهم : ليلة نابغية ، ورأس كليب ، وثالثة الأثافى ، والمستحيلات الثلاث ، ومن المجاز قول ابن خفاجة الأندلسى يصف نهرا :ـ

مُتَعَطِّفٌ مثلُ السوارِ كأنَّهُ ... والزهرُ يَكنُفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ

وغَدتْ تَحِفُّ به الغصونُ كأنها ... هُدبٌ تُحُفُّ بمُقلةٍ زرقاءِ

والريحُ تعبثُ بالغُصونِ وقد جرى ... ذهبُ الأصيلِ على لُجينِ الماءِ

(٤) التحاشى عن الكلمات الضعيفة ، والحشو الفارغ ، والعناصر

الثانوية في العبارات ، ثم الاكتفاء بأركان الكلام ، حتي يترك لها المجال لتبعث آثارها دون عائق . وأكثر ما يبدو ذلك في الخطابة ، والجدل ، والمناظرة ، وفى الشعر والنثر الأدبى كما سبق ، ومن هذا الضرب الأمثال والحكم مثل ، رب عجلة تهب ريثا — حسبك من شر سماعه — ولكم فى القصاص حياة .

ثانيا : قوة التركيب

يستطيع المتكلم أن يدل على الكلمات ذات المعاني الهامة بنبرها فى النطق وتكرارها ، ولكن الكلام المكتوب لا أثر فيه للصوت ، لذلك يجب أن يعرف القارىء أهمية هذه المعانى بوسيلة أخرى ليست صوتية . . وهى وضع كلماتها حيث تكتسب عناية وانتباها . ويتم هذا بالوسائل الآتية :—

(١) تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة الى موضعها الطبعى دلالة علي القصر أو التفخيم ، أو حسن الذوق واللياقة أو الأهمية مطلقا ، مثل اياك نستعين ـ على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ـ لاإله إلا الله ـ

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدّما فما عبس المحزونُ حتى تبسما

(٢) من أسباب القوة الطباق البديعى الذي مر ذكره فى الوضوح لأن المقابلة نوع من التحدى بين المعانى والمنافسة فى الظهور وهذه قوة للمعاني .... مثل فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ـ ان الأبرار لفى نعيم، وأن الفجار لفى جحيم ـ

لئن ساءنى أن نلتني بمساءة لقد سرّنى أنى خطرت ببالكِ

(٣) لما كانت القوة تستلزم السرعة فى أكثر الأحيان ، كان الايجاز لازما فى العبارة عامة ، وفي التراكيب خاصة ، لذلك تجد تراكيب الخطابة

مقتضبة سريعة كأنها أوامر ونذر صارمة ، كذلك الحوار التمثيلى ، والجدل الأدبي لما تتطلب من سرعة الأداء .

وقد يظهر التناقض بين القوة والوضوح ، اذ كانت تلجأ الى الايجاز والاكتفاء بالعناصر الهامة فى حين أنه محتاج الى هذه العناصر الثانوية لبسط الأفكار وانارة جوانبها . ومعنى هذا أن تحاول صفة الحياة على حطام الأخرى . وللخلاص من ذلك يترك الأمر للأديب فيؤثر أحد الجانبين تبعا لمقتضى الحال . ومع ذلك فان مهرة الكتاب والخطباء يجمعون فى أساليبهم بين الصفتين الاطناب في مرتبة العرض لايضاح الأفكار والتدليل عليها ثم الايجاز أخيرا لتلخيصها وقوة تأثيرها .

الفصل الثالث

جمال الاسلوب

الجمال صفة لازمة للاساليب الأدبية لاغنى لها عنه مادام الأديب معنيا بامتاع القراء واحترام أذواقهم . ومن السهل معرفة ذلك فقد تقرأ نصاً أدبيا واضح الأفكار ، قوى العاطفة ، ولكنك تحس مع هذا ، أنهانابية عن الذوق ، فجة العبارة ، لاتمتزج بالنفس . هذا النقص ناشىء في الغالب عن سقم التعبير ودليل علي خمود الشعور والذوق الأدبى ، وهو وحده سبب يكفي للعناية بجمال الأسلوب ، وموسيقا العبارة لعلنا نستطيع إرضاء ذوق القارىء وخياله فوق عواطفه وعقيدته .

وهنا نلاحظ أن ليس من جمال الأسلوب فى شيء هذه المحسنات البديعية ، او الصور الخيالية التى يصطنعها الكتاب عمداً ، ظانين أنها حلي بديعة ، أو مدارين بها فقرا عقليا ونقصا ذوقيا ، والحق أنها تدخل الأساليب الأدبية حين تدعوها طبيعة المعاني لتقويتها أو ايضاحها ، او حين يلجأ اليها الخيال ليصور بها عاطفة صادقة وانفعالا قويا .

والجمال صفة نفسية أيضاً تصدر عن خيال الأديب وذوقه ، فالخيال المصور يدرك مافي المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة ادراكا حادا رائعاً ، والذوق يختار أصفي العبارات وأليقها بهذا الخيال الجميل . وإذا ذكرنا الذوق فانما نعنى الذوق المهذب (الذى صقله الادب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، والهم الفصل بين الردىء والجديد ، وتصور أمثلة

الحسن والقبح [١]) وبذلك تتحقق هذه الصفة الفنية للاسلوب.

الجمال صفة سلبية وايجابية ، تكون بخلو الاسلوب من التنافر والخشونة التى تؤذى الحس والذوق ، ثم بجعله صدى صادقا لجمال الذوق والخيال .

أولا ـ الناحية السلبية

ويراد بالناحية السلبية أن تكون العبارة خالية من أسباب الاضطراب الصوتي ، والخشونة القاسية التى لاتنم عن عاطفة أوخيال ، وبذلك تجد الكلمات والجمل مطردة ، متناسقة الحروف والكلمات ، تقرؤها جهرة فتحس بالصوت متناسب الانغام صافيا ، ومما يعين فى ذلك مايلي : ـ

١ ـ قدرة الكاتب ـ بذوقه المصفي ـ على ابعاد الكلمات المتنافرة* الحروف ، أو العبارات المتنافرة الكلمات والجمل مهما يكن سبب هذا التنافر [٢] . وذلك تجده فى نحو قول البحترى . ـ

حلفت لها بالله يومَ التفرق وبالوجدِ من قلبي بها المتعلّقِ

والأصل من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف ـ قلبي ـ والصفة (المتعلق) بالضمير ـ بها ـ قبح ذلك . ونجد تتابع الإضافات أفسد أسلوب البيت الثاني من قول كشاجم . ـ

والزهرُ والقطرُ فى رُباها ما بينَ نظم وبين نثرِ
حدائقٌ كفُّ كلِّ ريح حلّ بها خيطَ كل قطر

وهذه الميمات التى اعتصمت بأوائل الكلمات فى البيت الآتي جعلته ثقيل النغم :ـ

---

١ ـ الوساطة ، من ٣٠ ٢ ـ راجع المثل السائر ، ص ٥٦ وما بعدها وص ١١٠ وما وليها ، والصناعتين ١٣٥

ملكتُ مطال مولود مفدّى مايح مانع مني مُرادى

وفى النثر ماورد لرجل يمدح كريما : «يامغبون كأس الحمد يامصبوح، ضاق عن نداك اللوح . ويابك المفتوح نستريح ، ونريح ذا التبريح، وترفه الطليح . » ومما ذكر مثالا للكلمات المتناسقة والعبارات المتناسبة السلسة ما ورد لامرأة فى أخيها عمر :—

فأقسم يا عمرُو لو نبّهناكَ إذا ، نبهنا منكَ داءً عُضالاَ

إذا ، نبهنا ليثَ عِرّيسة مغنيا مفيدا نفوسا ومالا

(٢) سرعة الأذن في ادراك الرتابة الصوتية التى تبدو في ترديد نغمة بعينها فى النص الأدبي حتى تبعث الملل . وخير منه التنويع الذى يحتفظ فيه بمستوي الموسيقى لتلائم الموضوع . وكثيرا مايقع الكتاب والشعراء والخطباء فى هذا الخطإ وهو نوع من المماثلة اللفظية وقع فيه المتنبى حيث قال :

دانٍ بعيدٌ محبّ مبغضٌ نهجٌ أغرّ حلوٌ ممرٌ ليّن شرسُ

(٣) وبعد ذلك لابد من ملاحظة النغمة العامة للأسلوب . والتيار الصوتى الذى يجب أن يطرد في غير قسوة ولا ملل . وذلك متوقف على براءة العبارة من الكلمات الطويلة الكثيرة . وترديد الجمل المتشابهة والعبارات العادية الي مدى بعيد .

ثانيا : الناحية الايجابية

على أن ما سبق كان عملا سلبيا يراد به اعداد الأسلوب لقبول العنصر الايجابي للجمال . وهو ما يمكن تسميته بالتناسب أو مطابقة اللفظ للمعني وقد رأيت فيما مضى أمثلة هذا القانون وبواعثه ، حين اختلفت العبارات

باختلاف الموضوعات والفنون . ومع ذلك فنذكر هنا شيئا من مظاهر هذا التناسب :ـــ

( ) الملاءمة الطبعية بين الألفاظ والمعاني حتي تكون الأولى حكاية للثانية . فتمثل حركاتها ، وأصواتها ، وروعتها اذ كانت مشاهد طبعية وتصور الحماسة قوية صارمة ، والنسيب عذبا رقيقا . والعتاب سهلا لطيفا كما مر .

(٢) وذلك يستلزم استيحاء الكاتب شعوره الصادق ، وخياله اليقظ ليمدا الذوق بالمقياس السديد الذى يستخدمه فى تكوين العبارات الملائمة .

(٣) وثمرة ذلك الظفر بهذه الهندسة الجميلة في صوغ الجمل وتأليف العبارات المتواصلة التى تكون صورة مطابقة لهذا النموذج المعنوى القائم بنفس الأديب . وهنا يعرض عليك الاسلوب جميع الخواص الفنية لشعور الكاتب وذوقه وخياله . وقد مرت أمثلة لذلك .

الفصل الرابع
تداخل الصفات و تعادلها

صفات الأسلوب أشبه شيء بأنغام الموسيقا أو أدواتها ، فكما أن هذه لا بد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة عامة تلائم الدور الملحن موضوعا وغاية ، كذلك لا بد من تآزر هذه الصفات وتناسقها حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا ، يغذى العقل ، والشعور ، ويرضى نواحى النفس الانسانية معبرا عنها أو مؤثرا فيها . لأن الأسلوب الواضح الذى تعوزه قوة العاطفة يكون بليدا فاترا ، وإذا لم يظفر بالخيال الجميل كان جافا . وتجد ذلك عند من يعنون بالسهولة أكثر من سواها ، وقع فيه أبو العتاهية ، والبهاء زهير ، والعباس بن الأحنف والأسلوب القوى الذى فقد التفكير الواضح ثرثرة فارغة ، والذى ألغى قيمة الذوق الجميل ، والتناسب الدقيق ، صعب جامد . وقد رأيت مثال ذلك عنـــد ابن هانيء الأندلسى والحجاج الثقفي . أما الأسلوب الحريص على جمال الصور أو الصوت غير مبال هـذه البساطة الواضحة فانه يكون زهيدا ، فاذا لم يعن بالعقيدة القوية والارادة الصارمة عاد وهما ميتا ، كما بدا ذلك فى عصور الانحطاط الادبي .

وأساس النجاح ألا يسمح الاديب لصفة بالحياة على فناء الاخرى ، بل لا بد من توفيرها جميعا ، وحفظ التوازن بينها بدرجة تجعل الاسلوب قائما بواجبه خير قيام . وذلك لا يكلف الاديب أكثر من يقظة نفسية ، وبراعة أسلوبية ، وصدق فى الاداء . فتجد روحه سارية فى أسلوبه ، تحيا فيه ولو أدركه الممات . وإذا كان لا بد من مثال يقرب لنا هذا المثال الذى

رسم للاسلوب فانك واجده نثرا عند طه حسين في الادب الجاهلي خاصة وعند المتنبي ـ مثلا ـ فى هذه الابيات التى بدأت بها هذه الرسالة ، وهأنذا أختمها بها :ـ

مِنَ الحلمِ أن تستعملَ الجهل دونَه ... اذا اتسعت فى الحلم طرقُ المظالمِ
وأن تردَ الماءَ الذى شطره دمٌ ... فتُسقى اذا لم يُسق مَن لم يزاحم
ومَن عرفَ الايامَ مَعرفتى بها ... وبالناس رَوّى رُمحه غير راحم
فلا هو مرحوم اذا ظفروا به ... ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

لئلا يظن أن الجمال يتراءى بالرقة فقط أو القوة وحدها وانما هو عبارة تحكى ما فى النفس صادقة . فالجمال معناه الصدق ، ومن هنا تستطيع أن تدعو الاساليب العلمية جميلة متى كانت صادقة التعبير عن عقول الكتاب ، وعقائدهم ، ومايشعرون به حين يكتبون .

* * *

أما بعد فلا أستطيع أن أترك القلم دون أن أحمد الله كفاء ما وفق وليتنى أستطيع ؟

تحت الطبع

للمؤلف

مقالات أدبية فى النقد الأدبي وتاريخ الادب

التصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٠	دب	أدب	٨٢	٣	بعيض	بغيض
٩	٢٠	ريت	رأيت	٨٢	٥	كدوا	سدوا
١٣	٧	لولا	أولا	٨٧	٩	التناقص	التناقض
١٣	١٠	المفكر	المنكر	٩١	١١	الاول	الأولى
١٣	١٨	سكة	شكه	٩٦	١٧	وقعي	واقمي
٢٤	٥	...	(١)	٩٨	٩	فسمعه	يسمعه
٣١	١٢	لقية	لقيمه	٩٨	١٩	يتطالع	يتظالع
٤٣	٣	الخطورة	الخطوة	١٠١	١١	حماس	حماسى
٤٤	١١	انفعال	انفعاله	١٠٢	١٩	والمشارك	والمشاهد
٥٧	٢	تتك	تلك	١٠٣	١٩	يقام	يقال
٦٢	١٤	فيفتحمهن	فيقتحمن	١٠٨	٣	مشروع	مشرع
٦٣	١٠	وللالزام	للالزام	١٢٢	١٣	بدون عناء	يدرعناء
٦٥	٦	تتعاني	تتفاني	١٢٥	٧	كما	لما
٧٤	٩	المقا	المقام	١٣١	١٣	حببا	حبيبا
٧٥	٤	لمنصفات	المنصفات	١٣٥	١	برتج	يرتج
٧٦	١٣	مزاج	مزاح	١٣٧	٧	ح	جا
٧٩	٩	كوامن	كوامن	١٣٨	١٧	تهادنوا	تهاونوا
٨٠	١٣	نزبة	تربه	١٥٤	١٢	التصور	التصوير
٨٠	١٦	عذهبة	مذهبه	١٥٨	٤	أسبت	أسيت

للمؤلف

(١) تاريخ ادابب اللغة العربية من العصر العباس إلي الآن

(٢) البهاء زهير

(٣) الشيخ محمد عبده

(٤) الشريف الرضي

(٥) ابن حمديس

obeikandl.com